المشرق

البانية

نظر جغرافي تاريخي اجتماعي

للاب لويس شيخو اليسوعي

قلَّما نجد في بلاد الدولة العثمانيَّة قطرًا شغل افكار اربابها كالولايات الواقعة في حدود تركيَّة اوربَّة الشاملة لبلاد البانية. فانَّ سلاطين بني عثمان منذ تربَّعوا في دست السلطنة في حاضرة البوزنطين صرفوا همَّتهم الى تلك الجهات ليكسروا نخوة اهلها ويوطدوا فيها سيطرتهم. الَّا انَّهم لم يبلغوا منها غايتهم كما شاؤوا فكان ذلك البركان لا يخمد مدَّة الَّا ريثما يجمع قواه فيقذف حممهُ المصهورة ويلتهم بنيرانهِ ما تعرَّض لثورانهِ. وكان الالبان في هذه المدة الاخيرة عادت اليهم نوبة الهيجان فتهدَّدوا الدولة بنشر معالم الفتن واصلاء الحروب في ثغور الممالك العثمانيَّة فسمع زئيرهم حتى اقاصي البلاد وكان لزمجرتهم وقعٌ سيءٌ في القلوب. فلهجت الالسن في امورهم وكثر القال والقيل في احوالهم. فرأينا ان نحرِّر هنا فصلًا جامعاً يوقف قرَّاءنا على صحيح اخبارهم ليكونوا على بصيرة من يقينها ويميِّزوا بين غثها وسمينها

١ جغرافيَّة البانية

اسمها عُرفت البانية في العهد القديم باسم ايبروس وكان يدخل فيها قسم من بلاد ايليرية وحالياً. امَّا اسمها البانية فلم يشع قبل القرون الوسطى قيل ان معناهُ البلاد الجبليَّة وبهِ دُعيت بلاد اخرى لوفرة جبالها. والاسم الذي اطلقهُ

عليها الاتراك هو ارناوطلك اي بلاد الارناؤوط وقد زعم البعض انهم اشتقوه من لفظ الارغونوط احد شعوب اليونان القديمة. والصواب انَّ هذا الاسم مشتق من لفظة يونانيَّة حديثة ارفنيتيس (Αρβανίτης) التي هي البانية (Albanitis) بعينها فقالوا « أرْوَنوط » ثمَّ قدَّموا النون على حرف العلة فقالوا ارنأوط. اما الالبانيون فيدعون أنفسهم باسم شكيبتار ومعناه في لغتهم «حاملو النسر» او «ابناء العُقاب» وليس كما زعم البعض « ابناء الصخور » وانتسابهم الى العقبان انما كان لسكناهم بين الجبال ولذلك اتخذوا في سالف الاعصار النسر كشعارهم فرسموهُ على راياتهم. وبموجبه دعوا ايضاً اوطانهم شكيبريا

﴿ موقعها وحدودها ﴾ موقع البانية في تركيَّة اوربَّة بين الدرجة ٣٩ و٤٣ من العرض الشمالي وبين ١٩ و٢١ ,٣٠, من الطول الشرقي. تحدُّها شمالاً بلاد البشناق والجبل الاسود وجنوباً بلاد اليونان ويتصل بها غرباً بحر الادرياتيك وبحر اليونان وتُتاخمها شرقاً ولاية الروملي ومقدونية فيبلغ طول بلاد البانية نحو ٥٠٠ كيلومتر وعرضها نحو ٢٨٠ ك

﴿ وصفها ﴾ بلاد الالبان اوفر بلاد تركية اوربَّة جبالاً وصخوراً تقوم في وسطها الاطواد كحواجز طبيعيَّة لا يقوى احد على قطعها. وقد ورد في خرافاتهم انَّ ابليس في قديم الزمان كان يطوف سهول الارض وعلى ظهره جرابٌ كبير فيه الجبال ليقسمها بين جهات المعمور فلمَّا وصل الى نواحي الالبان انشقَّ الجراب فصار نصيب البانية من الجبال والصخور اوفر من سواها. وما يثبت بالنظر الى خارطة البانية انَّ جبالاً عديدة تقطعها على خطوط متساوية من شمالها الشرقيّ الى جنوبها الغربي حتى تكاد تتصل بسواحلها البحريَّة كلبنان. وهذه الجبال لاحقة بجبال الالب المتفرِّعة في انحاء اوربَّة الوسطى والجنوبيَّة. وهي تتركب في شمال البانية واوساطها من كربونات الكلس والطباشير وفي جنوبها من عناصر بركانيَّة. ومن هذه الجبال ما يبلغ ٢,٣٠٠ متر علوّاً فيتعمم بالثلوج الغرَّاء.

وتكثر هناك الامطار في الاودية لاسيما في تشرين وكانون وتجري فيها الانهار الزاخرة كنهر دَرِين ونهر موراقا ونهر ڤولوتسا وصخار وغيرها. وهذه الانهار تشبه بسيول جارفة في فصل الشتاء فاذا جاء الصيف نضبت وكادت تيبس فلا تصلح للمراكب

والقوارب الآ نهر ارتا في حدود اليونان ونهر بوجانا قريباً من اشقودره . وفي البانية بحيرات واسعة كبحيرات سويسرة اخصها بحيرة اوخريدة وبحيرة پرسبا وبحيرة قنتروك وبحيرة اشقودره

اما المناخ فيختلف اختلافاً كبيراً على حسب مواقع البلاد فالهواء معتدل في السواحل في فصل الشتاء بينما يقرس البرد في داخل البلاد على قدر ابتعادها من البحر . وفي اعالي الجبال ربما هبطت درجات الحرارة الى ٢٠ و٢٥ تحت الصفر من المقياس المئوي حتى انَّ الانهار عينها تجمد . امَّا الربيع والصيف فيطيب فيها الهواء في الجهات العليا على خلاف السواحل التي تغلب عليها الرطوبة والحشيات لما يبقى من المستنقعات الوخمة في جوارها . وترتفع درجة الحرارة الى ٢٨ و٣٠ فوق الصفر

﴿ حاصلاتها ﴾ حاصلات البانية تتنوَّع مع اختلاف طبقات عاوها . فترى في سواحلها وسهولها واوديتها ضروب الغلات كالحنطة والشعير ولا سيما الذُّرَة التي يغتذي بها عموم الاهلين وكذلك صنوف الخضر والبقول والقطن والكتان والقرمز والتبغ الجيد . اما التربة فكثيرة الخصب حتى ان الفلاح يستغلّ منها في بعض نواحيها غلتين في السنة . وعلى معاطف تلالها الكروم الحسنة ويصطنعون الخمر المستطابة . وتكثر عندهم الاشجار المثمرة بانواعها لاسيما الزيتون ويزرعون شجر التوت لتربية دود القزّ . وعلى جبالها الغابات المتسعة من الصنوبر والشربين والدلب يستحضرون منها الاخشاب والراتينج

وفي جبالهم الذئاب والدببة والخنازير البريَّة والنمورة ويصطادون الايائل . وهناك تحلِّق النسور وكواسر الطير . وهم يربُّون الخيل الجياد ومنها صنف بلدي معتدل القوام قويّ البنيَّة . واكثر اشتغالهم بتربية المواشي فلهم القطعان التي لا يفي بها احصاء من الغنم والبقر والماعز وهم ينسجون من اصوافها المنسوجات المطرَّزة وسواها التي يُقبل عليها الزبائن وتباع في الخارج

ولا تخلو البانية من المعادن المختلفة كالرصاص والحديد والفحم المعدني والقير الّا ان الاهلين لم يكادوا حتى اليوم يستثمرونها

﴿ اقسامها واخصّ مدنها ﴾ يقسم الجغرافيون البانية ثلاثة اقسام: البانية العليا او الشماليَّة والبانية الوسطى او المركزية والبانية الجنوبيَّة . امَّا الدولة العثمانيَّة

فانها جعلت البانية اربع ولايات: قوصوه ومناستر شرقاً ثمّ اشقودره ويانيه غرباً. فلقوصوه ستة سناجق: اسكوب وپرشتنه ويكي بازار وايبك وطاشليجه وپرزرين تُقسم الى ٢١ قضاء و١٦ ناحية ويربي قراها على ٣١٠٠ قرية. ولمناستر خمس سناجق: مناستر وسرفيجه ودبره وايلبصان وكوريجه تبلغ اقضيتها ٢٢ قضاء ونواحيها ٣٤ ويلحق بها نيف و١٠٠ قرية. ولاشقودره سنجقان: اشقودره ودراج مع ثانية اقضية وعشر نواحي يتبعها ٤٧٦ قرية. اما يانيه فسناجقها اربعة: يانيه وارگري وپروزه وبرات فيها ١٥ قضاء و١٠ نواحي ونحو ١٦٠٠ قرية. فاخصّ مدنها الشمالية قوصوه واسكوب من اسواق التجارة المهمّة وپرشتنه احد المراكز الحربيّة الحصينة ويكي بازار او نوڤي بازار في موقع راقشا حاضرة الصرب القديمة وايبك واشقودره التي لها فرضتان على بحر الادرياتيك اي بار ودراج الشهيرة قديماً باسم دورازّو ودير اكيوم احدى المدن التجاريّة الكثيرة المعاملات مع ايطالية. واشهر مدن البانية المتوسطة مناستر التي يدعوها الترك ايضاً بطاليه وهي مدينة وافرة الخيرات فيها بقايا اديرة قديمة اشتقوا منها اسمها ومعناه الدير. اما البانية الجنوبيّة فاكبر حواضرها يانية او يانينة التي موقعها في جوار دودون الشهيرة في تاريخ اليونان بهيكلها حيث كان يُعبد المشتري ثمّ دعاها النصارى يوهانينا اكراماً للقديس يوحنّا الرسول ومنها اشتقّ المحدثون اسم يانينة. وهناك ايضاً مدينة ارگرى وهي ارجيروكسترو ليست بعيدة عن البحر حيث الفرضة الفاصلة بين البانية وايطالية

﴿ اهلها وعناصرها ﴾ انّ الاحصاءات في تعريف عدد الالبانيين تختلف كثيراً اذ كلها مبنيّة على الحدس والتخمين. والمرجح ان الالبانيين في الولايات الاربع يبلغون مليوناً ونصف مليون. وهم ينقسمون الى اسباط او عشائر يدعونها فيس او فراس لكل منها زعيم او امير يساعدهُ بعض الشيوخ في تدبير السبط. فالى هذه الشورى يرجعون في امورهم. والالبانيون على اختلاف اسباطهم يرتقون الى شعب قديم يُدعى بيلاسج (Pélasges) هاجر قسم منهُ الى ايطالية واليونان وهم ينقسمون اليوم الى عنصرين كبيرين هما في نزاع وخصام ابد الدهر العنصر الشمالي المعروف باسم غاغ (Guègues) والعنصر الجنوبي المسمى توسك (Toskes) يفصل بينهما نهر شكومب. وللعنصرين اخلاق الجبليين الذين يفضلون الاستقلال والحرية على ما

سواها وهم مطبوعون على شظف العيش والقناعة وكلهم من ذوي الفراسة والتحسس يرون في الحروب والقتال لذّة وارتياحاً . ولهم نفوس ابيّة فلا يصبرون على ذلّ ولا يغضون على ضيم فاذا سُفك دم احدهم لا يدعهُ اهلهُ مطلولاً فلا يزالون يرصدون القاتل حتى يقتلوهُ او واحداً من ذويهِ ولو كان اعزّ من عُقاب . والارنأوطي شاكّ بالسلاح ابداً لا تفارقهُ بندقيّتهُ ليلاً مع نهار ومن امثالهم : من نزع عني بندقيتي نزع عني اخي وسندي . وترى الاحداث والفتيات لا يسيرون الّا وفي اوساطهم الخناجر او الفرود . وان دعاهم الشيوخ الى الحرب لبّوا دعوتهم من ساعتهم فساروا الى مقاتلة العدو كسيرهم الى وليمة يتغنّون باغانيهم الوطنيّة ويتناشدون القدود الحماسيّة ولا يبالون بالموت . وبينهم التضامن والتحالف فيعدُّ كل منهم ابن عشيرتهِ كنفسهِ فيبذل ذاتهُ دونهُ . ولربّ البيت في العائلة المقام الارفع والسلطة التامة لا يأتي احد امراً الّا باذنهِ . واولادهُ اطوع لديهِ من خنصرهِ . امّا المرأة فهي في حالة حرجة تراها مقصورة في بيت ابيها وهي فتاة وفي بيت زوجها بعد اقترانها بشاب لم تعرفهُ على حسب رضى والدها . واذا اتت امراً مريباً قُتلت قتلاً شنيعاً بحكم اهلها الادنين وعليها في البيت الاشغال الشاقّة فعيشتها اشبه بعيشة العبيد . ومع هذا ترى النساء في امان تامّ لو شئن لَطُفن كل نواحي وطنهنّ دون ان يتعرض احد لنفوسهنّ او ينتهك حرمتهنّ . والنساء عادةً قويّات البنية طويلات القامة . ومع ما خُصّ به الالبانيون من الفظاظة والخشونة قد اشتهروا ايضاً بالاستقامة وصدق المعاملة والامانة في الخدمة

وبين الالبانيين عناصر اخرى اختلطت بهم اخصُّها امّة الزنزار وهم من الثلاثين واصلهم من قدماء الداقيين الذين كانوا في خدمة الرومان وهم يمتازون عن الالبانيين بسحنتهم واخلاقهم وهم يشتغلون بالزراعة وابنية البيوت ورعاية المواشي

﴿ لغاتهم وآدابهم ﴾ للالبانيين لغة خاصة يرتقي اصلها الى السنسكريتيّة فلها علاقة مع اللغات الاوربيّة القديمة الّا انها امتزجت بتوالي الاعصار بكثير من الالفاظ الصقليّة واليونانيّة واللاتينيّة والتركيّة . وبين لغة الغاغ ولغة التوسك اختلاف يُذكر حتى لا يكاد بعضهم يفهم البعض الآخر . ولهم كتب لدرس لغتهم سعى المرسلون الكاثوليك في نشرها منذ القرن السابع عشر في رومية بالحرف اللاتيني . وكذلك شاعت بينهم الروايات الوطنيّة والانشيد . ومن شعرائهم في القرن الثامن عشر يوليو

باريبوبا قصد القصائد الدينيَّة واشتهر بعدهُ في القرن التاسع عشر الكاثوليكي دي راد والمسلم نسيم بك . ولهم اليوم بعض جرائد ومطبوعات ادبيَّة . وكانت مدارسهم قليلة جدًا وسعت الدولة العثمانيَّة بنشر الحروف العربيَّة بينهم فكان ذلك من اقوى الاسباب لاهمال التخرُّج بالآداب الوطنيَّة . لكنَّ الكاثوليك كألوف عادتهم قد فتحوا المدارس لاحداثهم وهذَّبوهم على قدر ما سمحت به الاحوال

﴿ اديانهم ﴾ كان للدين الكاثوليكي التقدُّم على سواه قبل فتح الاتراك لبلاد البانية : ولمَّا بسطوا عليها سيطرتهم هاجر كثيرون الى ايطاليـة واستغزَّ الطمع بقسم كبير فدانوا بالاسلام ليحصلوا على املاك المهاجرين وعلى الامان والحريَّة . وقد اكد كثيرون من الذين عرفوهم انهم لم يأخذوا من الدين الاسلامي سوى قشرته قال اليزه روكلو في جغرافيَّته العامَّة (Elisée Reclus, *Géographie Universelle*) : " ليس للالبان المسلمين غيرة كبيرة على الدين وقد حفظوا كثيرًا من عادات النصارى القديمة فارتدُّوا دون ايمان صادق ومن امثالهم قولهم : حيث السيف فهناك الايمان » . والمسلمون اليوم في البانية نحو الف الف واكثرهم في ولايتي قوصوه ومناستر لقربهم من الاتراك

وفي البانية ايضًا ١٢٥,٠٠٠ من الروم التابعين لكنيسة القسطنطينية لهم اساقفة يهتمون بتدبيرهم الروحي . واكثرهم في ولاية يانية . وكثير منهم في جهات اليونان

اما الكاثوليك فارقى اهل البانية حضارةً واكثرهم في ولاية اشقودره . ومنهم قبائل المردة والماليسور والماتية . يبلغ عددهم الرسمي ١٣٠,٠٠٠ لهم في البانية ست ابرشيَّات . منهـا ابرشيتان منوطتان بالكرسي الرسولي توًا وهما ابرشيَّة دراج وابرشيَّة سكوب . والابرشيَّات الثلث الاخر يرعاها ثلاثة اساقفـة من النسـويين كراسيهم في ولاية اشقودره في مدن ساپا وأَلِسّيو وپولاتي تحت رئاسة مطران مركزهُ في حاضرة اشقودره واسمهُ في يومنا السيد سيريجي (Mgr G. Sereggi) منذ سنة ١٩١٠

٢ نظر تاريخي

كانت البانية في القرون السابقة لعهـد الرومان موطنًا لقبائل مستقلَّة تتقلَّل في جبالها وهي ترعى المواشي . فلما قويت شوكة المقدونيين في القرن الرابع قبل المسيح

ساروا الى القسم الجنوبي من البانية وهو المعروف بايبروس ففتحهُ فيلبوس ابو الاسكندر ذي القرنين وضمَّهُ الى بلادهِ فصار لاحقاً بدولة اليونان ومشى كثيرون من اهلهِ في جيوش الاسكندر فامتازوا بشجاعتهم وبعد موت ذي القرنين استقلَّ بعض ملوكهم اشهرهم پيرُّوس في القرن الثالث قبل المسيح فانهُ نزع الملك من ايدي منتصبهِ وفتح الفتوحات المديدة وحارب الرومان وانتصر عليهم ومصَّر بلادهُ التي امست اخبارها دوراً عظيماً في اساطير اليونان فجاروا فيها مقام آلهتهم وكسوا جبالها واوديتها وينابيعها وغاباتها ثوباً قشيباً من خرافاتهم التي لم تزل تتناقلها عنهم اخلافهم فشاعت شيوعاً عظيماً

وكانت جهات البانية الشمالية والشرقيَّة المعروفة ببلاد إلِيريَّة وميزيا اخذت ايضاً تنتبهُ من سِنَتها وتنضو عنها ثوب الهجيَّة فجمع اهلها كلمتهم تحت رئاسة ملوك وطنيين. الَّا ان الجبَّار الروماني لم يلبث ان يتطالَ للبلاد الواقعة ما وراء بحر الادرياتيك طامعاً نحوها ببصرهِ ففي السنتين ١٦٧ — ١٦٨ ق م زحف پول اميل بجنود رومية الى تلك البلاد وابطل دولها والغى سلالة ملوكها والحقها بالجمهوريَّة الرومانيَّة فصارت ادارتها في ايدي ولاة وحكَّام من قبل الدولة وبقيت تحت سيطرة الرومان اجيالاً عديدة الى ان خلفهم الروم البوزنطيون في القرن التاسع

وكانت النصرانيَّة دخلت في جبال البلقان وبين الامم ساكنة في وسطها بعد المسيح بزمن قليل تفذت اليها من مقدونية ومن نواحي اليونان حيث بشر بولس الرسول ثم تبعة الرسل. وقد ذكرت التواريخ الكنسيَّة اساقفة لبعض مدن البانية منذ القرن الثالث كما انها روت اخبار عدد من الشهداء ماتوا هناك في سبيل دينهم قبل قسطنطين

ولمَّا ضعفت دولة البوزنطيين انقضَّ الصقالبة والبلغار على البانية ولواحقها وصارت قسماً من بلغارية الكبرى فبقيت خاضعة لملوك البلغار ثلاثة اجيال حتى انتقض حبل الدولة البلغاريَّة فعاد ملوك الروم سنة ١٢٠٤ م واستولوا على البانية وانشأوا فيها دولة دامت مئة سنة بنيف واقطعوها امراء من قرابتهم من سلالة كومنين لكن ملوك تابولي والبندقة جعلوا يرمون بطرفهم الى نواحيها فتملَّك الدوق حنَّا ثاني ابناء ملك تابولي على أَلبيرو وضبط البندقة اشقودره وارتا وبعض

المدن الساحلية كدراج واستقلّ القسم الآخر تحت حكم امرائها

ثمّ ظهرت دولة بني عثمان فامتدت في القرن الرابع عشر والخامس عشر الى جهات البلقان وانتشبت تلك الحروب الهائلة التي شابت لها رؤوس الاطفال ففتح الاتراك مقدونية ورومانية والبلغار والصرب والبشناق فلم يقم في وجههم قائم معا بذلهُ بعض ملوك النصارى من الهمّة والبسالة الغريبة كجان هونياد (Jean Hunyade) ومتياس كورفين (Mathias Corvin) وغيرهما. وكانت البانية تتوقع غزوات الاتراك الذين عرفوا نخوة اهلها فامتنعوا مدّة عن محاربتها ورضوا باداء الجزية من اميرها جان كستريوتا الذي ارسل ابنهُ جرج كرهينة للسلطان مراد الثاني. فبقي جرج في حوزة بني عثمان الذين غصبوهُ على دينهِ ودعوه اسكندر بك (Scanderbeg)

فلما مات ابوه طلب ان يُطلق سراحهُ فلم يُجب السلطان الى دعوتهِ فساءهُ ذلك وانتهز فرصة واقعة جرت في نيسا سنة ١٤٤٣ ففرّ هارباً بعد ان حصل على صكّ امضاه لهُ كاتب اسرار الدولة مؤداه ان تُفتح لهُ قلعة كرويا في البانية. فلما وصل الى وطنهِ اعلن بدينهِ النصراني وضبط القلعة ونادى بالحرب بين مواطنيهِ فتبعهُ الارناؤوط وسكّان الجبل الاسود وسار بهم الى محاربة الاتراك وانكى فيهم النكايات المتوالية حتى صار اسمهُ مرادفاً للبطل المغوار والفارس الظافر قيل انهُ غلب الجيوش العثمانيّة في ٢٢ موقعة كبيرة وبقيت البانية طول حياتهِ حائزة لحريّتها التامة

ولعلّ البانية لم تكن لتفقد استقلالها بعد وفاة اسكندر بك سنة ١٤٦٧ لولا ان شيطان التفريق والتقسيم دخل بين زعمائها وصدع شملهم فعاد اليها الاتراك وضمّوها الى ممالكهم. وفي سنة ١٤٧٨ تخلّى البنادقة للدولة عن اشقودره على انّ هذا الخضوع للدولة العثمانية كان قليل الثبوت سريع العطب بالنظر اكثر منهُ بالفعل. وكان السلاطين اذا حاولوا الضغط على البانية قام اهلها في جبالهم وشمّوا عصا الطاعة الى ان تعدل الدولة الى الرفق وتؤثر غضّ النظر

وكثيراً ما دعا بعض امراء الالبان الوطنيين الى نفوسهم كالاميرين الالبانيين محمود مصطفى بوشتلي في اواخر القرن الثامن عشر فعصيا مدّة على الدولة. وقام في اوائل القرن التاسع عشر علي باشا المعروف بالتبه دلّني والي ياننية فهذا اقترن بابنة احد رؤساء الالبانيين وجيّش الجيوش وعاهد انكلترة ثمّ استقلّ في الحكم

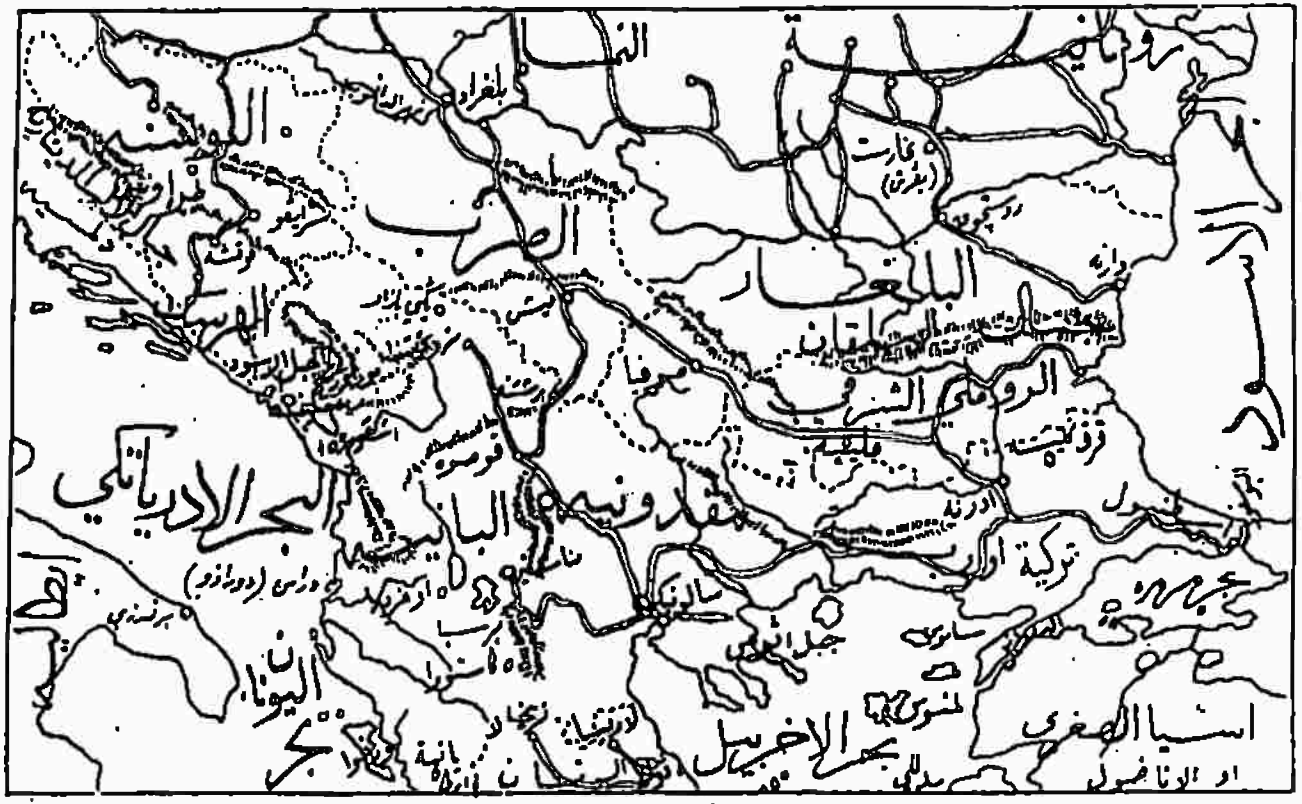

خارطة البلقان

وشبه جزيرة البلقـــان

وجعل يانية قصبة ملكه فحصّنها وزانها وانشأ فيها المدارس وجهّز لها المكاتب متقفياً آثار الامم المتمدنة. وبقي كذلك الى السنة ١٨٢٢ حيث خانهُ خورشيد باشا فقتلهُ غيلةً بمساعدة اليونان

على ان الالبان لم يبرحوا عن طلب الاستقلال فاوقدوا نار الحرب سنة ١٨٣٠ ثمّ سنة ١٨٤٣ ثم سنة ١٨٧٩ لما قصد مندوبو معاهدة برلين ان ينزعوا قساً من البانية ليضمّوها الى الدول المجاورة ثم اخيراً السنة ١٨٨٧ فكانت كل هذه الثورات دليلاً باهرًا على اباء الالبانيين وتفانيهم في سبيل وطنهم وتفضيلهم المنيّة على فقدان الحريّة

نظر اجتماعي

عرف الباب العالي ما في قلوب الالبانيين من الثبات ورباط الجأش والارتياح الى معامع القتال فاراد تأليف خواطرهم بأن منحهم بعض الامتيازات وعافاهم من أداء الجزية وتركهم في جبالهم يجرون على عاداتهم التي ألفوها منذ سالف الزمان في التشريع والمحاكمات وعقاب الجناة اذ يرفعون دعاويهم الى شيوخهم ولا يسمحون لعمّال الدولة بان يتداخلوا في امورهم الّا في بعض القضايا المعلومة. وكان المسلمون منهم ملتزمين بالخدمة العسكرية الّا انّ كثيرين بينهم كانوا لا يؤدونها لقلّة ضبط الاحصاءات

امّا النصارى فكانوا معافين من الخدمة وربما انتظموا في سلك جيوش الدولة متطوّعين فكان المردة يؤلّفون فرقةً ممتازة لهم قائد من دينهم وراية خاصة تمثل الشمس حمراء تشعّ على نسيج ابيض ذي اطار احمر. وفوق الشمس صورة الهلال وفوق الهلال صليب. وكان يسير بصحبتهم كاهن كاثوليكي يخدمهم في الروحيّات. وقد اعترفت الدولة العلية بفضل هؤلاء النصارى وجازتهم على بأسهم بان منحتهم في كل عام مئة حمل ذُرَة من اعشارها او ما يوازي ثمنها

وان سألت من هم هؤلاء المردة او المريديت كما هو الشائع. اجبنا انّ البعض يقولون انهم من نسل اولئك المردة الذين كانوا في قيليقية وانتدبهم ملوك بزنطية الى الدفاع عن لبنان على عهد بني امية فحاربوا المسلمين مدّة الى ان وقع الصلح بين ملوك الروم والخلفاء فعادوا الى قيليقية. فمن المحتمل ان فرعاً منهم اعتصم بعد ذلك

بجبال البلقان فتناسلوا وكثروا وحفظوا عاداتهم واستقلوا في حفظ دينهم . ولهم امراء من جنسهم واميرهم منذ بضع سنوات البرنك (البرنس) بيد دودا وهو حفيد رجل شهير كان اسمهُ بيب دودا من صناديد قومهِ كان قصد ان يحرّر بلادهُ من سيادة الاتراك لولا انهُ عُوجل بالقتل مسموماً . اما بيد دودا حفيده فاحتالت عليهِ الدولة وسعت باستقدامهِ الى الاستانة ثمَّ نفتهُ الى قسطموني . فكان نفيهُ موجباً لثورة جديدة في البانية . وقد سبق ان عدد الكاثوليك في البانية ١٣٠,٠٠٠ لكنَّ بعض السيّاح قد ضاعفوا هذا العدد حتى ان الرحّالة بوجاد (Poujade) الذي سكن بينهم مدَّة قد جعل عدد المردة وحدهم ١٤٧,٠٠٠

ويجاري المردة في بسالتهم الماليسور الذي هم ايضاً من الكاثوليك ولعلهم اكثر عدداً من المردة . وهؤلاء الكاثوليك ولا سيما المردة يحبُّون لفرنسة التجاُّوا غير مرَّة الى حمايتها منذ القرن السابع عشر والثامن عشر

وكل هذه القبائل النصرانيَّة منها والاسلاميَّة معاً تائقة الا الاستقلال وتطلب وسيلة لتنال مرغوبها

وكان عبد الحميد قد سعى جهدهُ في ان يؤلف قلوب الارناؤط فاتخذ منهم فرقةً لحراسة شخصهِ وخوَّلهم منحاً متعدّدة ورقّاهم الى مناصب رفيعة الَّا انَّ كلَّ هذه الامتيازات لم تُنسهم حرّيَّة جبالهم . فلمَّا حدث الانقلاب الاخير على يد تركيَّة الفتاة كان لقسم من الالبانيين فيهِ حصة مذكورة فلولا انتصارهم للدستوريين في ٢٠ تموز سنة ١٩٠٨ في قوصوه وفريسوفتش لما تمَّ الامر بسهولة . كذلك لمَّا حاول الارتجاعيون في نيسان سنة ١٩٠٩ بان يضبطوا زمام الحكم ثانية كان سقوط عبد الحميد بفضل عسكر الالبانيين

فهذه الخدم التي ادَّاها جنود البانية للدستور كان من حقهم ان يُجازَوا عليها ببعض الاختصاصات فكان الامر على خلاف ما ظنُّوا فان ارباب الدستور ارادوا ان ينتزعوا عنهم امتيازاتهم القديمة وينظموهم في سلك بقيَّة العناصر العثمانيَّة فأحفظتهم هذه المعاملة ونقموا على الدولة ونشروا لواء العصيان في مواطنهم . فارسل وزير الحربيَّة بعثةً عسكريَّةً لمحاربتهم تحت قيادة طورغود باشا فساروا الى بلادهم وتشدَّدوا عليهم ونهبوا قراهم وصادروا اهلهم فكانت نتيجة هذه المعاملة ان قام

الالبانيون وتألبوا من كل صوب وأوب وشنوا الغارة على جيوش الدولة وحملوهم خسائر كثيرة وتفاقم الامر حتى صار ذلك داعياً لسقوط الوزارة وجعلوا يترضون الالبان. بل سار جلالة السلطان بعينه الى بلادهم لجبر خاطرهم ومنحهم العفو التام وتبرع عليهم بنحو ٧٠٠,٠٠٠ فرنك تعويضاً عن مالهم المفقود وكفدية عن دمهم المسفوك

على انَّ هذه الهبات والصلات الملكيَّة لم تكن لتشفي غليل الالبانيين أنهم طلبوا اثبات امتيازاتهم القديمة بل ارادوا زيادة على ذلك ان توضع لالبانية حدود سياسيَّة ممتازة وان تُجعَل لها راية خاصة وان يكون ولاتها وعمَّالها من الالبان فقط وان تعترف لغتهم الالبانيَّة كلغة رسميَّة وان تتعهَّد الدول بتنفيذ هذه الاصلاحات. وقد كتب الالبانيون على اختلاف اديانهم قراراً للعمل بهذه البنود وقام مبعوثوهم في نادي العموم ليطلبوا الاعتراف بها محتجين على سوء معاملة جمعيَّة الاتحاد والترقي لمواطنيهم بعد ان تفانى الالبانيون في صالح تركيَّة. فكان لكلام هؤلاء المندوبين صدى استحسان في الوزارة وفي قلوب كل العثمانيين ولم يكن تأثيرهُ قليلاً في حلّ ندوة المبعوثين الاتحاديين. واصحاب الوزارة الجديدة لا يألون جهداً في اخماد لظى الالبانيين والكلّ في انتظار الانتخابات المقبلة ليروا ما سيكون من امرهم. فان هناك مشكلاً عظيماً لا يمكن حلُّهُ الَّا باخطار عظيمة على الدولة فان منحوا الالبانيين مطلوبهم فذلك اشبه باستقلال سوف يطلبهُ غيرهم ايضاً وان رفضوا عليهم طلبتهم اثاروا ذلك العنصر القويّ وعاد الالبانيون الى تهديد ثغور الدولة ولا سيما انهم في جوار الجبل الاسود والصرب والبلغار والمقدونيين وكل هذه العناصر في غليان متواصل اذا فار فائرهم لن يخمد الَّا بعد الجهد الجهيد ووقوع الاهوال وبينما نحن نكتب هذه الاسطر تدوي في آذاننا أنباء الحرب التي سُمع هزيمها في اطراف البلقان والله يعلم ما سيكون من امرها وقد سرَّنا انَّ الالبانيين الكاثوليك عرضوا نفوسهم على الحكومة السنيَّة متطوّعين في خدمتها بل كتب المهاجرون منهم الى اميركة الى جلالة السلطان باستعدادهم للدفاع عن الدولة. لطف الله بعباده ونجّى الوطن العزيز مما يتهدَّدهُ من اسباب الخراب فهو اللطيف الرحيم